

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة إبراهيم عليه السلام مكية

اَلرَّ كِتٰبَ كِتٰبٍ اَنْزَلْنٰهُ اِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمٰتِ اِلَى النُّورِ بِاِذْنِ رَبِّهِمْ اِلَّا صِرَاطَ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾

﴿كتاب﴾ هو كتاب يعني: السورة. وقرئ: ليخرج الناس. والظلمات والنور استعارتان للضلال والهدى ﴿بإذن ربهم﴾ بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو: تسهيل للحجاب، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ بدل من قوله: إلى النور بتكرير العامل كقوله: ﴿اللذين استضعفوا لمن آمن منهم﴾^(١) ويجوز أن يكون على وجه الاستئناف كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل إلى صراط العزيز الحميد.

اَللّٰهُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَاُوْتِيَ الْاَلْكٰفِرِيْنَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيْدٍ ﴿٢﴾

وقوله: ﴿الله﴾ عطف بيان للعزيز الحميد؛ لأنه جرى مجرى الأسماء الاعلام لغلبيته واختصاصه بالمعبود الذي تحق له العبادة كما غلب النجم في الثريا، وقرئ: بالرفع على هو الله. الويل نقيض الوال وهو: النجاة، اسم معنى كالهلاك إلا أنه لا يشتق منه فعل إنما يقال: ويلاً له فينصب نصب المصادر ثم برفع رفعها لإفادة معنى الثبات فيقال: ويل له كقوله: سلام عليك، ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل.

فَإِن قُلْتُمْ: مَا وَجْهَ اتِّصَالِ قَوْلِهِ: ﴿مَنْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِالْوَيْلِ؟ قُلْتُمْ: لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يُولَوْنَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ وَيُضْجَوْنَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ: يَا وَيْلَاهُ كَقَوْلِهِ: ﴿ادْعُوا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾^(٢).

اَلَّذِيْنَ يَسْتَجِیْبُوْنَ اَلْحَيٰرَةَ اَلَّذِيْنَآ عَلٰى الْاٰخِرَةِ وَرَسُوْدُوْنَ عَن سَبِيْلِ اللّٰهِ وَرَبُّوْهَا عِوَجًا اُولٰٓئِكَ فِيْ سَكٰلِحٍ بِعِيْبٍ ﴿٣﴾

﴿الذين يستحيون﴾ مبتدأ خبره أولئك في ضلال بعيد، ويجوز أن يكون مجروراً صفة للكافرين، ومنصوباً على الذم، أو مرفوعاً على أعني الذين يستحيون، أو هم الذين يستحيون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو:

استفعال من المحبة؛ لأن المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من الآخر. وقرأ الحسن: ويصدون بضم الياء وكسر الصاد يقال: صدّه عن كذا وأصدّه قال:

اناس أصنوا الناس بالسيف عنهم

والهمزة فيه داخلة على صد صدوداً لتنقله من غير التعدي إلى التعدي، وأما صدّه فموضوع على التعدي كمنعه وليست بفضيحة كواقفه؛ لأن الفصحاء استغنوا بصدّه ووقفه عن تكلف التعدي بالهمزة ﴿ويبغونها عوجاً﴾ ويطلبون لسبيل الله زيفاً واعوجاجاً وأن يدلوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية، والأصل ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل ﴿في ضلال بعيد﴾ أي: ضلوا عن طريق الحق ووقفوا دونه بمراحل.

فَإِن قُلْتُمْ: فما معنى وصف الضلال بالبعد؟ قُلْتُمْ: هو من الإسناد المجازي، والبعد في الحقيقة للضلال لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه، ويجوز أن يراد في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد؛ لأن الضال قد يضلّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُوْلٍ اِلَّا يَلْسٰنًا قَوِيْمًا. لِيُبَيِّنَ لَكُمْ قِيَضَ اللّٰهِ مِنْ يَشَآءُ وَيَهْدِيْ مَنْ يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيْمُ ﴿٤﴾

﴿إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾^(٣) أي: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا لم نفهم ما خوطبنا به كما قال: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته﴾^(٤).

فَإِن قُلْتُمْ: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم وإنما بعث إلى الناس جميعاً. ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾^(٥) إلى الثقلين وهم على السنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً. قُلْتُمْ: لا يخلو إما أن ينزل بجميع الالسنه أو بواحد منها فلا حاجة إلى نزوله بجميع الالسنه؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الالسنه لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر، قامت الترجام ببيانه وتفهميه، كما ترى الحال وتشاهدنا من نيابة الترجام في كل أمة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد

(1) سورة الاعراف، الآية: 75.

(2) سورة الفرقان، الآية: 13.

(3) قال احمد: جميع الفصل مرضى، لكن في هذه الخاتمة نظر؛ لأن فيها إشعاراً بأن إعجاز القرآن من حيث اللغة العربية خاصة، يتقاصر عن إعجازه لو قدر منزلاً بكل لسان، حتى أنه لو ينزل بجميع اللغات، لبلغ من الوضوح إلى حدّ يكاد أن يكون إلهاء إلى الإيمان به، وهذا فيه نظر، والقول به غير متعين؛ لأن المعجز يفيد

== العلم بصدق من ظهر على يده، ومتى حصل العلم، لم يكن بين علم وعلم تفاوت ولا ترجيح بين العلمين، وهذا هو التحقيق، والله أعلم. والزمخشري يبني في كثير من كلامه، على أن العلوم تتفاوت وتنقسم إلى جلي وأجلى، وهو من الحق بمعزل، وإنما ظنّ تلك طائفة ظاهرية، والله الموفق.

(4) سورة فصلت، الآية: 44.

(5) سورة الاعراف، الآية: 158.

نعماءه، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم أو أفاض عليهم من النعم تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر، وقيل: أراد لكل مؤمن؛ لأن الشكر والصبر من سجايهم تنبيهاً عليهم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَمَنَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُؤُونَكُمْ سَاءَ الْعَذَابِ الَّذِي جَعَلُوا لَكُمْ وَمَنْعُوا عَنْكُمْ أَنْتُمْ وَرَبُّكُمْ عَزِيزٌ ﴿٦﴾

﴿إذ أنجاكم﴾ ظرف للنعمة بمعنى الإنعام أي: إنعامه عليكم نلك الوقت.

فإن قلت: هل يجوز أن ينتصب بعلبيكم، قلت: لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى: الإنعام، أو غير صلة إذا أريد بالنعمة العطية، فإذا كان صلة لم يعمل فيه، وإذا كان غير صلة بمعنى: انكروا نعمة الله مستقرة عليكم عمل فيه، ويتبين الفرق بين الوجهين: أنك إذا قلت نعمة الله عليكم، فإن جعلته صلة لم يكن كلاماً حتى تقول: فائضة أو نحوها وإلا كان كلاماً، ويجوز أن يكون إذ بدلاً من نعمة الله أي: انكروا وقت إنجائكم وهو من بدل الاشتمال.

فإن قلت: في سورة البقرة ﴿يذبحون﴾⁽²⁾ وفي الأعراف ﴿يقتلون﴾⁽³⁾ وههنا ﴿ويذبحون﴾ مع الواو فما الفرق؟ قلت: الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبيانا له، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر.

فإن قلت: كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟ قلت: تمكينهم وإمهالهم حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاءً من الله، ووجه آخر: وهو أن تلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم، والبلاء يكون ابتلاءً بالنعمة والمحنة جميعاً قال تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾⁽⁴⁾ وقال زهير:

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلى

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِذْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

﴿وإذ تاذن ربكم﴾ من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على قوله: ﴿نعمة الله عليكم﴾ كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه: انكروا نعمة الله عليكم، وانكروا حين تاذن ربكم، ومعنى تاذن ربكم: أنن ربكم، ونظير تاذن وأنن، توعد وأوعد، تفضل وأفضل، ولا بد في فعل من زيادة معنى ليس في أفعال كأنه قيل: وإذ أنن ربكم إيداناً بليغاً تنفخ عنده الشكوك وتنزاح الشبه، والمعنى: وإذ تاذن ربكم فقال ﴿لئن شكرتم﴾ أو أجرى تاذن مجرى قال لأنه ضرب من القول، وفي قراءة ابن مسعود: وإذ قال ربكم

المتباعدة والاقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إعتاب النفوس وكذ القرائح، فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف؛ ولأنه لو نزل بالسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمته التي هو منها يتلوها عليهم معجزاً، لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء، ومعنى بلسان قومه: بلغة قومه، وقرئ: بلسن قومه، واللسن واللسان كالريش والرياش بمعنى: اللغة، وقرئ: بلسن قومه بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة وهو: جمع لسان كعماد وعمد وعمد على التخفيف، وقيل: الضمير في قومه لمحمد ﷺ، ورواه عن الضحاک، وأن الكتب كلها نزلت بالعربية ثم أداها كل نبي بلغة قومه وليس بصحيح؛ لأن قوله: لبيّن لهم ضمير القوم وهم العرب فيؤدّي إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية لبيّن للعرب وهذا معنى فاسد ﴿فيضّل الله من يشاء﴾ كقوله: ﴿فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾⁽¹⁾ لأن الله لا يضل إلا من يعلم أنه لن يؤمن، ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن. والمراد بالإضلال: التخلية ومنع الألفاف، وبالهداية التوفيق واللفظ، فكان ذلك كتابة عن الكفر والإيمان ﴿وهو العزيز﴾ فلا يغلب على مشيئته ﴿الحكيم﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يلفظ إلا بأهل اللطف.

وَلَمَّا أَسْكَنَّا مُوسَى بِأَيُّهَا أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْأَثَرِ وَكَرَّمْتَ بِأَيْمِ اللَّهِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَكَبِيرٌ لِكُلِّ سَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

﴿ان أخرج﴾ بمعنى أي: أخرج؛ لأن الإرسال فيه معنى القول كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له: أخرج، ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل، وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر لأن الغرض وصلها بما تكون معه في تاويل المصدر وهو الفعل والأمر، وغيره سواء في الفعلية، والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل قولهم: أوعز إليه بأن أفعال، فأدخلوا عليها حرف الجر، وكذلك التقدير بأن أخرج قومك ﴿وونكرهم بأيام الله﴾ وأنزهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم قضة وغيرها وهو الظاهر، وعن ابن عباس رضي الله عنه: نعمائهم وبلاؤهم، فأما نعمائهم: فإنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وقلق لهم البحر، وأما بلاؤهم، فإهلاك القرون ﴿لكل صبار شكور﴾ يصبر على بلاء الله، ويشكر

(3) سورة الأعراف، الآية: 141.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 35.

(1) سورة التغابن، الآية: 2.

(2) سورة البقرة، الآية: 49.

رَبُّوا نِعْمَ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي هِيَ أَجَلُ النِّعَمِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ وَنَصَائِحِهِمْ وَمَا أَوْحَى إِلَيْهِمْ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْآيَاتِ فِي أَقْوَاهِمُ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا كَتَبُوهَا وَلَمْ يَقْبَلُوهَا فَكَانَهُمْ رَتُوهَا فِي أَقْوَاهِمُ وَرَجَعُوهَا إِلَى حَيْثُ جَاءَتْ مِنْهُ عَلَى طَرِيقِ الْمَثَلِ ﴿مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَقَرِي: تَدْعُونَا بِإِدْغَامِ النَّوْنِ ﴿مَرِيبٌ﴾ مَوْقِعٌ فِي الرَّيْبِ، أَوْ نَوِي رَيْبَةٍ مِنْ أَرَابِهِ وَأَرَابُ الرَّجُلِ وَهِيَ: قَلَقُ النَّفْسِ وَأَنْ لَا تَطْمَئِنَّ إِلَى الْأَمْرِ.

﴿قَالَتْ رَبُّهُمُ أَفَى اللَّهِ سَكَتٌ فَأَطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ بَعْدُ آبَائُونَا فَأَتُونَا بِسُلْطَنِ مَرِيبٍ﴾ (١١).

﴿أفَى الله شك﴾ ادخلت همزة الإنكار على الظرف؛ لأنَّ الكلام ليس في الشك إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأئمة وشهادتها عليه ﴿يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي: يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم، أو يدعوكم لأجل المغفرة كقوله: دعوته لينصرتني، ودعوته لياكل معي، وقال:

دعوت لما نابني مسروراً فلبسني فلبس يدي مسورا
فإن قلت: ما معنى التبويض في قوله: ﴿من ذنوبكم﴾؟
قلت: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين كقوله: ﴿واتقوه وأطيعون﴾ يغفر لكم من ذنوبكم (3) ﴿يا قومنا اجيبوا داعي الله وأمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم﴾ (4) وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هل ألكم على تجديكم من عذاب اليم﴾ (5) إلى أن قال: ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ (6) وغير ذلك مما يفكك عليه الاستقراء، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد، وقيل: أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها: ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ إلى وقت قد سماه الله وبين مقداره يبلغكموه إن آمنتم وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت ﴿إن أنتم﴾ (7) ما أنتم ﴿إلا بشر مثلنا﴾ لا فضل بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلم تخصون بالنبوة دوننا، ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة ﴿بسلطان مبين﴾ بحجة بيّنة، وقد جاءتهم رسلاً بالبينات والحجج،

لئن شكرتم أي: لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح ﴿لأن يدينكم﴾ نعمة إلى نعمة، ولاضاعفن لكم ما أتيتكم ﴿ولئن كفرتم﴾ وغمطتم ما أنعمت به عليكم ﴿أن عذابي لشديد﴾ لمن كفر نعمتي.

﴿قَالَ مَوْثِقٌ إِنَّ تَكْفُورًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جِيْمًا فَإِنَّ اللَّهَ لَنَزِيءٌ حَيْدٌ﴾ (٨).

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم﴾ يا بني إسرائيل والناس كلهم فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذي لا بد لكم منه وأنتم إليه محايوج والله غني عن شكركم ﴿حميد﴾ مستوجب للحمد بكثرة نعمه وآيابه وإن لم يحمده الحامدون.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا يَمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَنِي سَلْفِي يَمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مَرِيبٍ﴾ (٩).

﴿والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً، أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح ولا يعلمهم إلا الله اعتراض، والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله، وعن ابن عباس رضي الله عنه: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون يعني: أنهم يدعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن العباد ﴿فردوا أيديهم في أقواهم﴾ (1) فضوضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل كقوله: ﴿عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ (2) أو ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى السننهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إننا كفرنا بما أرسلتم به﴾ أي: هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره إقناتاً لهم من التصديق، إلا ترى إلى قوله: ﴿فردوا أيديهم في أقواهم وقالوا إننا كفرنا بما أرسلتم به﴾ وهذا قول قوي، أو وضعوها على أقواهم يقولون للأنبياء: أطبقوا أقواهم واسكتوا، أو رتوها في أقواهم الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت، أو وضعوها على أقواهم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدي جمع يد وهي: النعمة بمعنى: الأيدي أي:

(2) سورة آل عمران، الآية: 119.

(3) سورة نوح، الآيات: 3 و4.

(4) سورة الأحقاف، الآية: 31.

(5) سورة الصف، الآية: 10.

(6) سورة الصف، الآية: 12.

(7) قال أحمد: ومن تهالكه على الانتصار، لاعتقاده تفضيل الملائكة على الرسل من البشر، يستعين حتى يحمل الكفار على أنهم كانوا يعتقدون، كمتعقد القدرية، في تفضيل الملك على الرسول؛ لأنه يدعي ذلك أمراً مركزاً في الطباع، معلوماً ضرورة، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وأقوى هذه الوجوه، هذا الوجه الذي نبه المصنف على اختصاصه بالقوة، وإنما كان كذلك؛ لأنَّ إقناتهم الرسل من الإيمان قولاً وفعلاً، بوضع اليد في الفم، هو المناسب لحسدهم في الكفر، وتصدير العبارة بالحرف المؤكد، ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب، وإعادة ذلك، مبالغة في التأكيد، وليس السياق بمناسب للضحك ولا الغيظ، ولا لتصميم الرسل كماسيته لإقناتهم من القبول، إلا ترى أنهم لما أعابوا للرسل القول، ولم ينكروا عليهم عودهم إلى المجادلة، دلَّ على أنهم لم يسكتوهم أولاً، ولا كان غرضهم ذلك، والله أعلم.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَيِّجَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ وَلَتُسَخِّرَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَيَعِدُ ﴿١٨﴾.

والمراد بالأرض أرض الظالمين وديارهم ونحوه: **﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾** (2) **﴿وأورثكم أرضهم وديارهم﴾** (3) وعن النبي ﷺ: «من أذى جاره ورثه الله داره» (4) ولقد عاينت هذا في مدة قريبة كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا منها ويؤذيني فيه، فمات ذلك العظيم وملكتي الله ضعيفته، فنظرت يوماً إلى أبناء خالي يترددون فيها ويدخلون في دورها ويخرجون ويأمرون وينهون، فنكرت قول رسول الله ﷺ وحدثتهم به وسجدنا شكرًا لله **﴿ذلك﴾** إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين بديارهم أي: ذلك الأمر حق **﴿لمن خاف مقامي﴾** موقعي هو: موقف الحساب؛ لأنه موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة، أو على إحقاق المقام، وقيل: خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله والمعنى: أن ذلك حق للمتقين كقوله: **﴿والعاقبة للمتقين﴾** (5).

وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيبٍ ﴿١٥﴾

﴿واستفتحوا﴾ واستنصروا على أعدائهم: **﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾** (6) أو استحكموا الله وسألوه القضاء بينهم من الفتح وهي: الحكومة كقوله تعالى: **﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾** (7) وهو معطوف على أوحى إليهم، وقرئ: **﴿واستفتحوا﴾** بلفظ الأمر وعطفه على لنهلكن أي: أوحى إليهم ربهم وقال لهم: لنهلكن، وقال لهم: **﴿واستفتحوا﴾** **﴿وخاب كل جبار عنيد﴾** معناه: فنصروا وظفروا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم، وقيل: **﴿واستفتح الكفار على الرسل ظناً منهم على الحق والرسل على الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه﴾**.

مِنْ رَبِّهِمْ جَهَنَّمَ يُشْفَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَجْرَعُهُمْ وَلَا يَكْفِكُهُمْ يُشْفَى مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ مَرْئٍ وَرَبِّهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾.

﴿من ورثه﴾ من بين يديه قال:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب وهذا وصف حاله وهو في الدنيا؛ لأنه مرصد لجهنم فكانها بين يديه وهو على شفيرها، أو وصف حاله في الآخرة حيث يبعث ويوقف.

وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجاً.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَرِّقُوكَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَعَصِيَ عَلَىٰ مَاءٍ عَذَّبْنَا مَنْ وَرَاءَ اللَّهِ فَيَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾.

﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ تسليم لقولهم وأنهم بشر مثلهم، يعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما وراء ذلك فما كانوا مثلهم، ولكنهم لم ينكروا فضلهم تواضعاً منهم واقتصروا على قولهم **﴿ولكن الله يمين علي من يشاء من عباده﴾** بالنبوة؛ لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها لخصائص فيهم قد استاثروا بها على أبناء جنسهم **﴿إلا بإذن الله﴾** أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة الله **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصد أولياء وأمرها به كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم، ألا ترى إلى قوله: **﴿وما لنا أن لا نتوكل على الله﴾** ومعناه: وأي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه **﴿وقد هدانا﴾** وقد فعل بنا ما يوجب تولكنا عليه وهو: التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين.

فَإِنْ قُلْتُمْ: ﴿١﴾: كيف كرر الأمر بالتوكل؟ قُلْتُ: الأول لاستحداث التوكل، وقوله: **﴿فليتوكل المتوكلون﴾** معناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى اتفيسهم على ما تقدم **﴿لنخرجنكم... أو لتعودن﴾** ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم وإما عودكم حالقين على ذلك.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعيدوا فيها؟ قُلْتُ: معاذ الله، ولكن العود بمعنى: الصيرورة وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية، لا تكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد، ما عدت أراه، عاد لا يكلمني، ما عاد فلان مال، أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد **﴿لنهلكن الظالمين﴾** حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه، وقرأ أبو حيوة: لنهلكن وليسكننكم بالياء اعتباراً لأوحى وأن لفظه لفظ الغيبة ونحوه قولك: أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن.

(4) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (303/2).

(5) سورة الاعراف، الآية: 128.

(6) سورة الانفال، الآية: 19.

(7) سورة الاعراف، الآية: 89.

(1) قال أحمد: وبهذا يخرج عن وادي من قتل قتيلًا، فله سلبه، والله أعلم.

(2) سورة الاعراف، الآية: 137.

(3) سورة الاحزاب، الآية: 27.

فإن قُلْتُ: علام عطف «ويسقى»؟ قُلْتُ: على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقي فيها ما يلقي ويسقى من ماء صديد كأنه أشد عذابها فخصص بالذكر مع قوله: «ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت».

فإن قُلْتُ: ما وجه قوله تعالى «من ماء صديد»؟ قُلْتُ: صديد عطف بيان لماء قال: ويسقى من ماء فأبهمه إبهاماً ثم بيّنه بقوله: صديد، وهو: ما يسيل من جلود أهل النار «يتجرعه» يتكلف جرعه «ولا يكاد يسيغه» نخل كاد للمبالغة يعني: ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإسافة كقوله: «لم يكد يراها»⁽¹⁾ أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها «ويأتيه الموت من كل مكان» كان أسباب الموت وأصنافه كلها قد تالتت عليه وأحاطت به من جميع الجهات تظليماً لما يصيبه من الآلام وقيل: من كل مكان من جسده حتى من إبهام رجله، وقيل: من أصل كل شعرة «ومن ورائه» ومن بين يديه «عذاب غليظ» أي: في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشد مما قبله وأغلظ، وعن الفضيل: هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد، ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أي: استمطروا، والفتح المطر في سني القحط التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله ﷺ فلم يسقوا، فنكر سبحانه ذلك وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد وأنه يسقى في جهنم بدل سقياه ماء آخر، وهو صديد أهل النار، واستفتحوا على هذا التفسير كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأمهم.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَأَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿٤٧﴾.

وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سبويه تقديره: وفيما يقص عليك «مثل الذين كفروا بربهم» والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله: «أعمالهم كرماد» جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد، ويجوز أن يكون المعنى مثل أعمال الذين كفروا بربهم، أو هذه الجملة خبراً للمبتدأ أي: صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك: صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول، أو يكون أعمالهم بدلاً من مثل الذين كفروا على تقدير مثل أعمالهم وكرماد الخبر. وقرئ: «الرياح في يوم عاصف» جعل العصف لليوم، وهو لما فيه، وهو الريح، أو الرياح كقولك: يوم ماطر، وليلة ساكرة، وإنما السكور لريحها، وقرئ: في يوم عاصف بالإضافة، وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام، وعتق الرقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة

الملهوفين، والإجارة وغير ذلك من صنائعهم، شبهها في حبروطها وذهابها هباءً منثوراً، لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به وكونها لوجهه برماد طيرته الريح العاصف «لا يقدرُونَ» يوم القيامة «مما كسبوا» من أعمالهم «على شيء» أي: لا يرون له أثراً من ثواب كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء «ذلك هو الضلال البعيد» إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق، أو عن الثواب.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَسْأَلُ بِذُنُوبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٤٨﴾.

«بالحق»⁽²⁾ بالحكمة والغرض الصحيح والأمر العظيم ولم يخلقها عبثاً ولا شهوة. وقرئ: خالق السموات والأرض «إن يسألكم» أي: هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم، إعلاماً باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدم يقدر على الشيء وجنس ضده.

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٤٩﴾.

«وما ذلك على الله بعزيز»⁽³⁾ بمتعذر بل هو هين عليه يسير؛ لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتفى الصارف تكون من غير توقف كتتحريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض نونه صارف، وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر بالله، لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة، وأنه هو الحقيق بأن يعبد ويخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء.

وَيَرْزُقُوا اللَّهَ جِزِيًّا فَقَالَ السُّمَمَكِيُّ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَوُونَ عَنْنا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّنا اللَّهُ لَهَدَّيْتُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَمْ سَبَّنا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيسٍ ﴿٥٠﴾.

«ويرزوا لله» ويرزون يوم القيامة، وإنما جيء به بلفظ الماضي لأن ما أخبر به عزّ وعللاً لصدقه كأنه قد كان ووجد، ونحوه: «ونادى أصحاب الجنة»⁽⁴⁾ ونادى أصحاب النار، ونظائر له، ومعنى: بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له، أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفي عليه خافية، أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه.

(1) سورة النور، الآية: 40.
(2) قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي، وقد تقدمت أمثاله.
(3) قال أحمد: وهذا اعتزال صراح لم يتقنع في إبرازة، وما أبشع قوله عن الله جل جلاله، خلص له الداعي وأمضى الصارف، وما أنباه =

(4) سورة الاعراف، الآية: 44.

النجاة كما سلكتنا بكم طريق الهلكة ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر، وأهمزة وأم للتسوية ونحوه: ﴿اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾⁽⁶⁾ وروي: أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك، ثم يقولون سواء علينا.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل قوله: ﴿سواء علينا﴾ بما قبله؟ قُلْتَ: اتصاله به من حيث أن عتابهم لهم كان جزعاً مما هم فيه فقالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا يريون أنفسهم ولياهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من تلك أطم، أو لما قالوا لو هدانا الله طريق النجاة لاغنيا عنكم وإنجيناكم أتبعوه الإقنات من النجاة فقالوا ﴿ما لنا من محيص﴾ أي: منجي ومهرب جزعنا أم صبرنا، ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً كأنه قيل: قالوا جميعاً: سواء علينا كقوله: ﴿لذلك ليعلم أنني لم أخنه﴾⁽⁷⁾، والمحيص يكون مصدرًا: كالمغيب، والشيب، ومكانًا كالمبيت، والمصيف، ويقال: حاص عنه وجاض بمعنى واحد.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ
وَوَعَدَكُمْ فَأَلْفَنْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تُلُومُنِي وَلُؤْمُؤُا أَنفُسِكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِفِكُمْ وَمَا أَنَا
بِمُعْزِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿لما قضى الأمر﴾ لما قطع الأمر وفرغ منه وهو الحساب، وتصار الفريقين وبخول أحدهما الجنة وبخول الآخر النار، وروي⁽⁸⁾: أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً في

فإن قُلْتَ: لم كتب ﴿الضعفاء﴾ بواو قبل الهمزة؟ قُلْتَ: كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو، ونظيره ﴿علماء بني إسرائيل﴾⁽¹⁾ والضعفاء: الاتباع والعوام. والذين استكبروا ساداتهم وكبرائهم الذين استتبعوهم واستقروهم وصنّوهم عن الاستماع إلى الأنبياء واتباعهم ﴿تبعاً﴾ تابعين جمع تابع على تبع كقولهم: خادم وخدم، وغائب، أو نوي تبع، والتبع الاتباع يقال: تبعه تبعاً.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين من في ﴿عذاب الله﴾ وبينه في ﴿من شيء﴾؟ قُلْتَ: الأولى: للتبيين والثانية: للتبعيض كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبعيض معاً بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله أي: بعض بعض عذاب الله.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ قُلْتَ: الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم وعتاباً على استتباعهم واستقوائهم وقولهم: ﴿فهل أنتم مغنون عنا﴾ من باب التبعيض؛ لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرّون على الإغنا. عنهم فأجابوهم معتردين عما كان منهم إليهم، بأن الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم ولم يضلّوهم إما موركبي الذنب في ضلالهم وإضلالهم على الله كما حكى الله عنهم وقالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا أبأونا﴾⁽³⁾ ﴿لو شاء الله ما عبنا من دونه من شيء﴾⁽⁴⁾ يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا، ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين: ﴿يوم يبيعهم الله جميعات فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء﴾⁽⁵⁾ وإما أن يكون المعنى: لو كنا من أهل اللطف فلفظ بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان، وقيل معناه: لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي: لاغنيا عنكم وسلكتنا بكم طريق

(1) سورة الاعراف، الآية: 50.

= الموفق.

(3) سورة الانعام، الآية: 148.

(4) سورة النحل، الآية: 35.

(5) سورة المجادلة، الآية: 18.

(6) سورة الطور، الآية: 16.

(7) سورة يوسف، الآية: 52.

(8) قال أحمد: قد حمل قول الكفار في الآية الأولى، على إبطال الانتحال؛ لأنه لا يلائم معتقده، واستشهد على أن الكذب حينئذ غير ممتنع، ولا متعذر، بقوله تعالى: ﴿فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ ثم لما ظن أن قول الشيطان هذا يلائم معتقده، اجتهد في الاستدلال على تصويبه وتصحيحه، وإن كان قاتله الشيطان، كل ذلك منه اتباع للهوى حيثما توجه، وأية سلك، ونحن معاصر أهل السنة الملقبين عنده بالمجبرة، نقول: إن الله تعالى إنما أورد هذا الكلام غير راد له، ولا مخطيء فيه للشيطان، كما اقتضت كلام الكفار في الآية الأولى كذلك، ونحن نعتقد أن العلامة إنما تتوجه على المكلف، وأما الله تعالى، فمقتسب عن ذلك، وحجته البالغة، وقضاؤه الحق، ونلك أنا نعترف بما خلقه الله تعالى للعبيد، من الاختيار الذي يجده من نفسه عن تجاذب طرفي الأفعال الإرادية =

(2) قال أحمد: لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة، المشتملة على أن الله تعالى مهما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن هداية المشركين مما لم يشأه، ولو شاءها لاهتدوا، وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار في دار الحق، حين حقت لهم الحقائق، وانكشف الغطاء، والمقصود من اقتصاصه: إنذار أمثالهم في الدنيا، وتحذيرهم من الحسرة والندم في الآخرة، إذا حق عليهم العذاب، واعترفوا بالحق، وقالوا القول المنكور، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى، فلما فطن الزمخشري لذلك، شرع في تقرير تخطئتهم في هذا القول في الآخرة، كما خطاهم في الدنيا، ليتم له اعتقاد أن الله يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، ومن ذلك هداية الكفار، فإن الله تعالى يشاءها في الدنيا، لكنها لم تكن، وأتى له ذلك، وسياق الآية يصوب الكلام المنكور، وينذر الغافلين عنه في الدنيا، ويحذرهم من التورط فيما يؤدي إلى هذا الندم، حيث لا ينفع ويجر إلى هذه الحسرة إذ لا ينفع كما ورد كلام الشيطان عقيب ذلك، حين يعترف بالحق في دار الحق، وحيث لا ينفعه الندم إيمانه، فيقول: ﴿إن الله وعدهم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ الخ. وإنما سيق تحذيراً وإنذاراً إتفاقاً، والله =

بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم أي: في الدنيا كقوله تعالى: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾⁽²⁾ ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له كقوله تعالى: ﴿إننا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾⁽³⁾ وقيل: من قبل يتعلق بكفرت وما موصولة أي: كفرت من قبل حين أتيت السجود لأنم بالذي أشركتموني وهو: الله عز وجل، تقول: شركت زيداً فإذا نقلت بالهمزة قلت: أشركني فلان أي: جعلني له شريكاً ونحو ما هذه ما في قولهم: سبحان ما سخركن لنا، ومعنى: إشراكهم الشيطان بالله. طاعتهم له فيما كان يزيته لهم من عبادة الأوثان وغيرها، وهذا آخر قول إبليس وقوله: ﴿أَنْ الظالمين﴾ قول الله عز وجل، ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس، وإنما حكى الله عز وجل ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون لطفاً للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بد لهم من الوصول إليه، وأن يتصوروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجهم. وقرئ: فلا يلوموني بالياء على طريقة الالتفات كقوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾⁽⁴⁾.

وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿١٢٦﴾

وقرأ⁽⁵⁾ الحسن وعمرو بن عبيد وأدخل الذين آمنوا: على فعل المتكلم بمعنى: وأدخل أنا، وهذا دليل على أنه من قول الله لا من قول إبليس ﴿بإذن ربهم﴾ متعلق بأدخل أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره.

فإن قلت: فيم يتعلق في القراءة الأخرى وقولك: وأدخلهم أنا بإذن ربهم كلام غير ملتئم قلت: الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله بإذن ربهم: بما بعده أي ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ بإذن ربهم يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كُنْتَجَرٌ طَيِّبَةً أَسْلَمَهَا نَائِبٌ وَرَعَاهَا فِي السَّكَاةِ ﴿١٢٧﴾ تَوَقَّعْتُ أَكْثَرَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَصْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لِمَأْتَمَرٍ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٨﴾

قرئ: ألم تر ساكنة الرء كما قرئ: من يتق، وفيه ضعف ﴿ضرب الله مثلاً﴾ اعتمد مثلاً ووضعه و ﴿كلمة طيبة﴾ نصب بمضمر أي: جعل كلمة طيبة ﴿كشجرة

الاشقياء من الجن والإنس فيقول ذلك ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ وهو: البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ﴿ووعنتكم﴾ خلاف ذلك ﴿فاخلفتمكم وما كان لي عليكم من سلطان﴾ من تسلط وقهر فاقسركم على الكفر والمعاصي والجنحك إليها ﴿إلا أن دعوتكم﴾ إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني وليس الدعاء من جنس السلطان ولكنه كقولك: ما تحيتهم إلا الضرب ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ حيث اغتررتم بي وأطعتموني إذ دعوتكم ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم، وهذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه.

فإن قلت: قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به؟ قلت: لو كان هذا القول منه باطلاً لبين الله بطلانه وأظهر إنكاره، على أنه لا طائل له في النطق بالباطل في ذلك المقام إلا ترى إلى قوله: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعنتكم فاخلفتمكم﴾ كيف أتى فيه بالحق والصدق، وفي قوله: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ وهو مثل قول الله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾⁽¹⁾ ﴿وما أنا بمصرحكم وما أنتم بمصرخي﴾ لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغيثه، والإصراخ الإغاثة. وقرئ: بمصرخي بكسر الياء وهي ضعيفة واستشهدوا لها ببيت مجهول:

قال لها هل لك يا تافئ قالت له ما أنت بالمرضي وكأنته قدر ياء الإضافة ساكنة، وقبلها ياء ساكنة فحركها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين ولكنه غير صحيح؛ لأن ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف في نحو عصاي فما بالها وقبلها ياء؟

فإن قلت: جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الإدغام، فكانها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن فحركت بالكسر على الأصل؟ قلت: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات. ما في ﴿بما أشركتموني﴾ مصدرية و﴿من قبل﴾ متعلقة بأشركتموني يعني: كفرت اليوم

كانت له في ذلك منوحة، والالتفات على هذا الوجه كثير مستفيض، إلا ترى إلى قوله تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ثم قال: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض﴾ ولم يقل: تنزيلاً منا. قلت: لأمر ما صرف الكلام عن هذا الوجه، وهو أن ظاهر أدخل بلفظ المتكلم، يشعر بأن إخالهم الجنة لم يكن بواسطة، بل من الله تعالى مباشرة، وظاهر الإن، يشعر بإضافة الدخول إلى الوسطة، فيبينها تنافر، ولكن يحسن عندي أن يعلق بخالدين، والخلود غير الدخول، فلا تنافر، والله أعلم.

ضرورة، وبذلك قامت الحجة له على خلقه، وإن سلبنا عن قدرة الخلق تأثيرها في الفعل، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة، وبين صرف العلامة إلى المكلف، والله الموفق.

- (1) سورة الحجر، الآية: 42.
- (2) سورة فاطر، الآية: 14.
- (3) سورة الممتحنة، الآية: 4.
- (4) سورة يونس، الآية: 22.
- (5) قال أحمد: فإن قلت: ما الذي صرف الزمخشري عن جملة على الالتفات من التكلم إلى الغيبة، والجاه إلى تلبية بما بعده، وقد

قراره ﴿أي: استقرار، يقال: قر الشيء قرارًا كقولك: ثبت ثباتًا، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت، والذي لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه من قولهم الباطل لجلج، وعن قتادة: أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًا ولا في السماء مصعدًا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الضَّالِّينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٧﴾.

القول الثابت الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأن إليه نفسه، وتثبيتهم به في الدنيا أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير، ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما، وتثبيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا عند توافق الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر، وقيل معناه: الثابت عند سؤال القبر، وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نكر قبض روح المؤمن فقال: «ثم يعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي»⁽²⁾.

فذلك قوله: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ **ويضل الله الظالمين** الذين لم يتمسكوا بحجة دينهم، وإنما اقتصرنا على تقليد كبارهم وشيوخهم كما قلد المشركون آباهم فقالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾⁽³⁾ وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضل وأزل ﴿ويفعل الله ما يشاء﴾ أي: ما توجبه الحكمة؛ لأن مشيئة الله تابعة للحكمة من تثبيت المؤمنين وتأييدهم وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم والتخلية بينهم وبين شانهم عند زلهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَمَنًا ثُمَّ كَفَرُوا وَأَعْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ ﴿٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْآقْرَارَ ﴿٩﴾.

بدلوا نعمة الله أي: شكر نعمة الله ﴿كفرًا﴾؛ لأنهم شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفرًا، فكانهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلًا، ونحوه: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾⁽⁴⁾ أي شكر رزقكم حيث وضعت التكنيب موضعه، ووجه آخر وهو أنهم بدلوا نفس النعمة

طيبة ﴿وهو: تفسير لقوله: ضرب الله مثلاً كقولك: شرف الأمير زيدًا كسأه حلة وحمله على فرس، ويجوز أن ينتصب مثلاً وكلمة بضرب أي: ضرب كلمة طيبة مثلاً بمعنى: جعلها مثلاً ثم قال: كشجرة طيبة على أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هي: كشجرة طيبة ﴿أصلها ثابت﴾ يعني: في الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿وفرعها﴾ وأعلاها ورأسها ﴿في السماء﴾ ويجوز أن يريد وفرعها على الاكتفاء بلفظ الجنس، وقرأ أنس بن مالك: كشجرة طيبة ثابت أصلها.

﴿فإن قلت: أي فرق بين القراءتين؟ قلت: قراءة الجماعة أقوى معنى؛ لأن في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة، وإذا قلت: مررت برجل أبوه قائم، فهو أقوى معنى من قولك: مررت برجل قائم أبوه؛ لأن المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل، والكلمة الطيبة كلمة التوحيد، وقيل: كل كلمة حسنة كالسبيحة، والتحميدة، والاستغفار والتوبة، والدعوة، وعن ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة، وشجرة التين، والعنب، والزمار، وغير ذلك، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبيًا فوقع في قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله ﷺ أن أقولها وأنا أصغر القوم، وروي: فمنعني مكان عمر واستحييت، فقال لي عمر: يا بني لو كنت قلتها لكانت أحب إلي من حمر النعم، ثم قال رسول الله ﷺ: «إلا إنها النخلة»⁽¹⁾. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: شجرة في الجنة، وقوله: في السماء، معناه: في جهة العلو والصعود ولم يرد المظلة، كقولك في الجبل: طويل في السماء تريد: ارتفاعه وشموخه.

توتني أكلها كل حين تعطي ثمرها كل وقت ووقته الله لأثمارها ﴿بإذن ربها﴾ بتيسير خالقها وتكوينه ﴿لعلهم يتذكرون﴾ لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني.

وَمَثَلُ كَيْفَ حَيْثُ كَفَّرَ حَيْثُ اجْتَنَّتْ مِنْ تَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٠﴾.

كشجرة خبيثة كمثل شجرة خبيثة أي: صفتها كصفتها، وقرئ: ومثل كلمة بالنصب عطفًا على كلمة طيبة، والكلمة الخبيثة كلمة الشرك، وقيل: كل كلمة قبيحة، وأما الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل، والكشوث، ونحو ذلك، وقوله: ﴿اجتنت من فوق الأرض﴾ في مقابلة قوله: أصلها ثابت، ومعنى اجتنت: استوصلت، وحقيقة الاجتثات أخذ الجنة كلها ﴿ما لها من قَرَارٍ﴾

(2) رواه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، وأحمد في مسنده 287/4 - 288.

(3) سورة الزخرف، الآيات: 22 و23.

(4) سورة الواقعة، الآية: 82.

(1) رواه البخاري في كتاب: تفسير القرآن ومن سورة إبراهيم، باب: كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء... (الحديث رقم:

4698)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: مثل

المؤمن مثل النخلة. (الحديث رقم: 7029).

ليقيموا، وليتفقوا ويكون هذا هو المقول. قالوا: وإنما جاز حذف اللام لأن الأمر الذي هو قتل عوض منه، ولو قيل: يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز.

فإن قُلْتُ: علام انتصب ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾؟ قُلْتُ: على الحال أي: نوي سر وعلانية بمعنى: مسرين ومعلنين، أو على الظرف أي: وقتي سر وعلانية، أو على المصدر أي: إنفاق سر وإنفاق علانية، والمعنى: إخفاء المتطوع به من الصدقات والإعلان بالواجب. والخلال المخالة.

فإن قُلْتُ: كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه ﴿لا يبيع فيه ولا خلال﴾؟ قُلْتُ: من قيل أن الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات فيعتلون بدلاً لياخذوا مثله، وفي المكارم ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها، وأما الإنفاق لوجه الله خالصاً كقوله: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ (3) فلا يفعله إلا المؤمنون الخالص، فبعثوا عليه لياخذوا بدله في يوم لا يبيع فيه ولا خلال أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخاللة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارم، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله، وقرئ: لا يبيع فيه ولا خلال بالرفع.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْوَهَّابَ ﴿٣١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْيَلَّ وَالنَّجَارَ ﴿٣٢﴾ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَسْأَلُوهُ يَنْتَهَى إِلَهُكُمْ وَالْإِنْسَانُ لَطَّافٌ لَدِيمٌ ﴿٣٣﴾

﴿الله﴾ مبتدا و﴿الذي خلق﴾ خبره و﴿من الثمرات﴾ بيان للرزق أي: أخرج به رزقاً هو ثمرات، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعول أخرج و﴿ورزقاً﴾ حالاً من المفعول أو نصباً على المصدر من أخرج؛ لأنه في معنى رزق و﴿بأمره﴾ بقوله: كن ﴿دائمين﴾ يداًبان في سيرهما وإنارتها، ودرئها الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات و﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾ يتعاقبان خلفه لمعاشكم وسباتكم و﴿وآتاكم من كل ما

كفراً، على أنهم لما كفروها سلبوها فبقوا مسلوبي النعمة موصوفين بالكفر حاصلاً لهم الكفر بدل النعمة، وهم أهل مكة أسكنهم الله حرمه وجعلهم قوام بيته وأكرمهم بمحمد ﷺ، فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم، أو أصابهم الله بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضر بهم بالقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة، كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقاً في أعناقهم، وعن عمر رضي الله عنه، هم: الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، فاما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتموا حتى حين، وقيل هم: متنصرة العرب جبلة بن الأيهم وأصحابه ﴿واحلوا قومهم﴾ مما تابعهم على الكفر ﴿دار البوار﴾ دار الهلاك. وعطف ﴿جهنم﴾ على دار البوار عطف بيان.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٤﴾

قرئ: ليضلوا بفتح الياء وضمها.

فإن قُلْتُ: الضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد، فما معنى اللام؟ قُلْتُ: لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد كما كان الإكرام في قولك: جئتكم لتكرمني نتيجة المجيء، دخلته اللام وإن لم يكن غرضاً، على طريق التشبيه والتقريب و﴿تمتعوا﴾ إيدان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه مأمورين به قد أمرهم أمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمراً لونه وهو أمر الشهوة والمعنى: إن تمتع على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية ونحوه: ﴿قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾ (1).

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِمَّا بَاتُوا بِرَبِّهِمْ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣٥﴾

المقول محذوف؛ لأن جواب قل يدل عليه وتقديره ﴿قل لعبادي الذين آمنوا﴾ (2) أقيموا الصلاة وأنفقوا ﴿يقيموا الصلاة وينفقوا﴾ وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا بمعنى:

(1) سورة الزمر، الآية: 8.

(2) قال أحمد: وفي هذا الإعراب نظر؛ لأن الجواب حينئذ يكون خبراً من الله تعالى، بأنه إن قال لهم هذا القول، امتثلوا مقتضاه، فقاموا الصلاة وأنفقوا، لكنهم قد قيل لهم، فلم يمثل كثير منهم، وخبر الله تعالى يجلب عن الخلف، وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين، على العمول عن هذا الوجه من الإعراب، مع تباينه فيما ذكره بادي الرأي، ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب، لا على الاستغراق، ويقوى بوجهين لطيفين، أحدهما: أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالإيمان الحق، المنزه بإيمانه عند الأمر، كهذه الآية، وكقوله: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن﴾ و﴿قل للمؤمنين﴾

= يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم و ﴿قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهم﴾ الثاني: تكرر مجيئه للموصوفين، بأنهم عباد الله المشرفون بإضافتهم إلى اسم الله، وقد قالوا: أن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز، إلا مدحه للمؤمنين، وخصوصاً إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف، فالحاصل من ذلك أن المأمور في هذه الآية، من هو يصمد الامتثال، وفي حيز المسارعة للطاعة، فالخبر في أمثالهم حق وصنق، أما على العموم إن أريد، أو على الغالب، والله أعلم.

(3) سورة الليل، الآية: 20 - 19

«من غشنا فليس منا»⁽²⁾ أي: ليس بعض المؤمنين على أن الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه وأستحدث الطاعة لي، وقيل: معناه ومن عصاني فيما نون الشرك.

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ الْحَرَمِ
رَبَّنَا لِيُؤْمِرُوا الصَّلَاةَ فَأَجْمَلَ أَفْعَدُ مِنْكَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ وَارْتَقُوا
مِنْ الشَّرَاتِ لَمَأْهَمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾

﴿من ذريتي﴾ بعض اولادي وهم: إسماعيل ومن ولد منه ﴿بوادٍ﴾ هو: وادي مكة ﴿غير ذي زرع﴾ لا يكون فيه شيء من زرع قط كقوله: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾⁽³⁾ بمعنى: لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير. وقيل للبيت المحرم: لأن الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو لانه لم يزل ممنعاً عزيزاً يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب، أو لانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها، أو لانه حرم على الطوفان أي: منع منه، كما سمي: عتيقاً لانه اعتق منه فلم يستول عليه ﴿ليقيموا الصلاة﴾ اللام متعلقة بأسكنت أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتزق، إلا ليقموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمره بذكرك وعبادتك، وما تعمر به مساجك ومتعبداك متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك والطواف به، والركوع والسجود حوله مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك ﴿أفئدة من الناس﴾ أفئدة من أئمة الناس، ومن للتبعيض ويدل عليه ما روي عن مجاهد: لو قال أفئدة الناس لرحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل من لارتحموا عليه حتى الروم والترك والهند، ويجوز أن يكون من لابتداء كقولك: القلب مني سقيم تريد: قلبي، فكانه قيل: أفئدة ناس وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتأكيد أفئدة؛ لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة وقرئ: أفئدة بوزن عافدة وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون من القلب كقولك: أدر في ادور، والثاني: أن يكون اسم فاعله من أفدت الرحلة إذا عجلت أي: جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم، وقرئ: أفئدة وفيه وجهان: أن تطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين، وأن يكون من أفد ﴿تهوي إليهم﴾ تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً من قوله:

يهوي مخارمها هوي الأجلد

وقرئ: تهوي إليهم على البناء للمفعول من هوى إليه وأهواه غيره، وتهوي إليهم من هوى يهوي إذا أحب ضمن

سالتموه من للتبعيض أي: أتاكم بعض جميع ما سالتموه نظراً في مصالحكم، وقرئ: من كل بالتونين، وما سالتموه نفي ومحل نصب على الحال أي: أتاكم من جميع ذلك غير سائليه، ويجوز أن تكون ما موصولة على وأتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه، ولم تصلح أحوالكم ومعاشكم إلا به، فكانكم سالتموه أو طلبتموه بلسان الحال ﴿لا تحسوها﴾ لا تحسروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها، هذا إذا ارادوا أن يعدها على الإجمال، وأما التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله ﴿لظلم﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها ﴿كفار﴾ شديد الكفران لها، وقيل: ظلم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس فيتناول الإخبال بالظلم والكفران من يوجدان منه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٢٨﴾

﴿هذا البلد﴾ يعني: البلد الحرام زاده الله آمناً وكفاه كل باغ وضالم وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم عليه السلام ﴿آمناً﴾ ذا أمن.

فإن قلت: أي فرق بين قوله: ﴿اجعل هذا بلداً آمناً﴾⁽¹⁾ وبين قوله: ﴿اجعل هذا البلد آمناً﴾؟ قلت: قد سأل في الأزل: أن يجعله من جملة البلاد التي يامن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني: أن يخرج من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف فاجعله آمناً ﴿واجنبني﴾ وقرئ: واجنبني وفيه ثلاث لغات: جنبه شر، وجنبه، واجنبه، فأهل الحجاز يقولون: جنبني شره بلتشديد، وأهل نجد: جنبني واجنبني والمعنى: ثبتنا وأمنا على اجتناب عبادتها ﴿وبني﴾ أراد بنيه من صلبه، وسئل ابن عيينة: كيف عبت العرب الأصنام؟ فقال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً واحتج بقوله: ﴿واجنبني وبني﴾ ﴿إن تعبد الأصنام﴾ إنما كانت أصنام حجارة لكل قوم قاتوا: البيت حجر فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت، فكانوا يديرون بذلك الحجر ويسمونه: الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت ولا يقال: دار بالبيت.

رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ مَنْ يَمَيِّ قَائِمٌ بَيْنِي وَمَنْ عَصَانِي
فَأِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ فاعوذ بك أن تعصمني وبني من ذلك، وإنما جعلن مضلات لأن الناس ضلوا بسببهن فكانهن أضللنهم كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرتهم أي: افتتنوا بها واغرتوا بسببها ﴿فمن تبعني﴾ على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي ﴿فإنه مني﴾ أي: هو بعضي لفرط اختصاصه بي وملابسته لي، وكذلك قوله:

(1) سورة البقرة، الآية: 126.

= فليس منا (الحديث رقم: 279).

(2) رآه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ: «من غشنا»

(3) سورة الزمر، الآية: 28.

وَقَبَّلَ دُعَاؤَهُ ①.

على قوله: ﴿عَلَى الْكَبِيرِ﴾ بمعنى: مع كقوله. إنني على ما ترين من كبري أعلم من حيث تؤكل الكتف وهو في موضع الحال معناه: وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبر. روي: أَنَّ إِسْمَاعِيلَ وُلِدَ لَهُ وَهُوَ ابْنُ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً، وَوُلِدَ لَهُ إِسْحَاقُ وَهُوَ ابْنُ مِائَةٍ وَتِسْعِينَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَقَدْ رَوَى أَنَّهُ وُلِدَ لَهُ إِسْمَاعِيلُ لِأَرْبَعِ وَتِسْعِينَ، وَإِسْحَاقُ لِتِسْعِينَ، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ: لَمْ يُولَدْ لِإِبْرَاهِيمَ إِلَّا بَعْدَ مِائَةٍ وَسَبْعِ عَشْرَةَ سَنَةً، وَإِنَّمَا نَكَرَ حَالَ الْكَبِيرِ لِأَنَّ الْمَنَّةَ بِهَبَةِ الْوَلَدِ فِيهَا أَعْظَمُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا حَالٌ وَقُوعُ الْيَأْسِ مِنَ الْوِلَادَةِ وَالظَّفَرُ بِالْحَاجَةِ عَلَى عَقَبِ الْيَأْسِ مِنْ أَجْلِ النِّعَمِ وَأَحْلَاهَا فِي نَفْسِ الظَّافِرِ، وَلِأَنَّ الْوِلَادَةَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ الْعَالِيَةِ كَانَتْ آيَةً لِإِبْرَاهِيمَ ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ كَانَ قَدْ دَعَا رَبَّهُ وَسَأَلَهُ الْوَلَدَ فَقَالَ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ② فَشَكَرَ اللَّهُ مَا أَكْرَمَهُ بِهِ مِنْ إِجَابَتِهِ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: اللَّهُ تَعَالَى يَسْمَعُ كُلَّ دُعَاءِ أَجَابَهُ أَوْ لَمْ يَجِبْهُ؟ قُلْتُمْ: هُوَ مِنْ قَوْلِكَ: سَمِعَ لَكَ كَلَامَ فَلَانٍ إِذَا اعْتَدَّ بِهِ قَبْلَهُ، وَمَنْهُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لِنَشِيءِ كَائِنَةٍ لِنَبِيِّ يَتَغْنَى بِالْقُرْآنِ» ③.

فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا هَذِهِ الْإِضَافَةُ إِضَافَةُ السَّمِيعِ إِلَى الدُّعَاءِ؟ قُلْتُمْ: إِضَافَةُ الصِّفَةِ إِلَى مَفْعُولِهَا، وَأَصْلُهُ لِسَمِيعِ الدُّعَاءِ وَقَدْ نَكَرَ سَبِيوِيَةً فَعِيلًا فِي جُمْلَةٍ أَبْنِيَةِ الْمَبَالِغَةِ الْعَامِلَةِ عَمَلِ الْفِعْلِ كَقَوْلِكَ: هَذَا ضَرْبٌ زَيْدًا، وَضَرْبٌ أَخَاهُ، وَمِنْحَارٌ إِبْلَهُ، وَحَذَرٌ أُمُودًا، وَرَحِيمٌ أَبَاهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ إِضَافَةِ فَعِيلٍ إِلَى فَاعِلِهِ، وَيَجْعَلُ دُعَاءَ اللَّهِ سَمِيعًا عَلَى الْإِنْسَانِ الْمَجَازِيِّ، وَالْمَرَادُ سَمَاعُ اللَّهِ ﴿وَمَنْ ذَرَيْتِي﴾ وَيُضَعُ ذَرَيْتِي عَطْفًا عَلَى الْمَنْصُوبِ فِي أَجْعَلْنِي، وَإِنَّمَا بَعْضُ لَأَنَّهُ عِلْمٌ بِإِعْلَامِ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ فِي ذَرَيْتِهِ كِفَارٌ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَا يَنْبَأُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ④ ﴿وَتَقْبَلُ دُعَاءِي﴾ أَي: عِبَادَتِي ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ⑤.

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ⑥.

في قراءة أبي: ولأبوي، وقرأ سعيد بن جبيرة: ولوالدي على الأفراد يعني: أباه، وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما: ولولدي يعني: إسماعيل إسحاق، وقرئ: لولدي بضم الواو، والولد بمعنى: الولد كالعندم والعندم، وقيل: جمع ولد كاسد في أسد، وفي بعض المصاحف: ولذريتي.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ جَازَ لَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِأَبْوَيْهِ وَكَانَا كَافِرَيْنِ؟ قُلْتُمْ: هُوَ مِنْ مَجُوزَاتِ الْعَقْلِ، لَا يَعْلَمُ امْتِنَاعَ جَوَازِهِ إِلَّا بِالتَّوْقِيفِ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِوَالِدَيْهِ أَدَمَ وَحَوَاءَ، وَقِيلَ: بِشَرَطِ

معنى تنزعه فعدّي تعديته ﴿وَارزقهم من الثمرات﴾ مع سكتاهم وأدياً ما فيه شيء منها بأن تجلب إليهم من البلاد ﴿لعلهم يشكرون﴾ النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد بباب ليس فيه نجم ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن الله عز وجل أجاب دعوته فجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريها الله بواد غير ذي زرع وهي: اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد وليس ذلك من آياته بعجيب، متعنا الله بسكنى حرمة، ووقفنا لشكر نعمه، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عليه السلام، ورزقنا طرفاً من سلامة نك القلب السليم.

رَبَّنَا إِنَّكَ تَمَلِكُ مَا نَحْنُ وَمَا نُحْيِي وَمَا نُؤْتِي وَمَا نَحْيِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ⑦.

النداء المكرر ليليل التضرع واللجأ إلى الله تعالى ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تَخْفِي وَمَا نَعْلَمُ﴾ تعلم السر كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه؛ لِأَنَّ غَيْبًا مِنَ الْغُيُوبِ لَا يَحْتَجِبُ عَنْكَ، وَالْمَعْنَى: أَنْكَ أَعْلَمُ بِأَحْوَالِنَا وَمَا يَصِلِحُنَا وَمَا يَفْسِدُنَا مِنَّا، وَأَنْتَ أَرْحَمُ بِنَا وَأَنْصَحُ لِنَا مَنَّا بِنَفْسِنَا وَلِهَذَا، فَلَا حَاجَةَ إِلَى الدُّعَاءِ وَالطَّلَبِ، وَإِنَّمَا نَدْعُوكَ إِظْهَارًا لِلْعُبُودِيَّةِ لَكَ، وَتَخْشَعًا لِعِظْمَتِكَ، وَتَذَلُّلاً لِعِزَّتِكَ، وَافْتِقَارًا إِلَى مَا عِنْدَكَ، وَاسْتِعْجَالًا لِنَيْلِ آيَاتِكَ، وَلِهَذَا إِلَى رَحْمَتِكَ، وَكَمَا يَتَمَلَّقُ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِهِ رَغْبَةً فِي إِصَابَةِ مَعْرُوفِهِ مَعَ تَوَقُّرِ السَّيِّدِ عَلَى حَسَنِ الْمَلِكَةِ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ رَفَعَ حَاجَتَهُ إِلَى كَرِيمٍ فَايْبَأُ عَلَيْهِ النَّجْحَ فَرَادَ أَنْ يَنْذِرَهُ، فَقَالَ: مِثْلُكَ لَا يَنْكَرُ اسْتِقْصَارًا وَلَا تَوْهَمًا لِلْغَفْلَةِ عَنْ حَوَائِجِ السَّائِلِينَ، وَلَكِنْ ذَا الْحَاجَةِ لَا تَدْعُهُ حَاجَتُهُ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ فِيهَا، وَقِيلَ: مَا نَخْفِي مِنَ الْوُجُدِ لِمَا وَقَعَ بَيْنَنَا مِنَ الْفَرْقَةِ وَمَا نَعْلَمُ مِنَ الْبِكْءِ وَالدُّعَاءِ، وَقِيلَ: مَا نَخْفِي مِنْ كِتَابَةِ الْإِفْتِرَاقِ وَمَا نَعْلَمُ يَرِيدُ مَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَاجِرٍ حِينَ قَالَتْ لَهُ عِنْدَ الْوِدَاعِ إِلَى مَنْ تَكَلَّمْنَا؟ قَالَ: إِلَى اللَّهِ أَكَلِمَكَ قَالَتْ: اللَّهُ أَمْرُكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا نَخْشَى تَرْكَتَنَا إِلَى كَافٍ. ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَصَدِيقًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَكُنَّا نَخْفَى﴾ ① أَوْ مِنْ كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ يَعْنِي: وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ مِنْ شَيْءٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمِنْ لِّلْاسْتِغْرَاقِ كَانَهُ قِيلَ: وَمَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مَا.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَهَبَ لِي عَلَى الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ② رَبِّ أَصْلِحْ مِيقَمَ الْمَسَافِرِ وَرَبِّ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا

= وقصرها، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (الحديث رقم: 1842).

(4) سورة البقرة، الآية: 124.

(5) سورة مريم، الآية: 48.

(1) سورة النمل، الآية: 34.

(2) سورة الصافات، الآية: 100.

(3) رواه البخاري في كتاب: فضائل القرآن، باب: ممن لم يتغن بالقرآن (الحديث رقم 5023) ومسلم في كتاب: صلاة المسافرين =

تقبل ببصرك على المرثي تديم النظر إليه لا تطرف
﴿مقنعي رؤوسهم﴾ رافعياً ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾
لا يرجع إليهم أن يطوفوا بعيونهم أي: لا يطوفون ولكن
عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان، أو
لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم. الهواء: الخلاء
الذي لم تشغله الأجرام فوصف به، فقيل: قلب فلان هواء
إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جرأة، ويقال للاحمق
أيضاً: قلبه هواء. قال زهير:

من الظلمان جئجؤه هواء

لأنّ النعام مثل في الجبن والحمق، وقال حسان:

فأنت مجوف تخب هواء

وعن ابن جريج: اقتدتهم هواء صفر من الخير خاوية
منه، وقال أبو عبيدة: جوف لا عقول لهم.

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا
إِنَّكَ أَكْبَرُ قَرِيبٌ نَحْنُ نَدْعُوكَ وَنَسْتَعِيزُ بِكَ أَرَأَيْتَ لَوْ كُنَّا نَسْتَعِيزُ
مِنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿١٤﴾.

﴿يوم ياتيهم العذاب﴾ مفعول ثان لانذر وهو: يوم
القيامة ومعنى ﴿آخِرْنَا إلى أجل قريب﴾: ردنا إلى الدنيا
وأهلنا إلى أمد وحد من الزمان قريب تدارك ما فرطنا فيه
من إجابة دعوتك واتباع رسلك، أو أريد باليوم يوم هلاكهم
بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات
ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم
ربهم إلى أجل قريب كقوله: ﴿لولا آخرتني إلى أجل قريب
فأصلق﴾⁽⁶⁾ ﴿أولم تكونوا أقسمتم﴾ على إرادة القول
وفيه وجهان: أن يقولوا: نلك بطراً وأشرّاً ولما استولى
عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال
حيث بنوا شديداً وأملوا بعيداً و﴿ما لكم﴾ جواب القسم
وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله: أقسمتم، ولو حكى لفظ
المقسمين لقليل: ما لنا ﴿من زوال﴾ والمعنى: أقسمتم أنكم
باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء، وقيل: لا تنتقلون
إلى دار أخرى يعني: كفرهم بالبعث كقوله: ﴿واقسموا بالله
جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾⁽⁹⁾.

وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَلَيْسَ لَكُمْ
كَيْفَ فَكَلْنَا بِهِمْ وَصَرِّحْنَا لَكُمْ بِالْحَمَالِ ﴿١٥﴾.

يقال: سكن الدار وسكن فيها ومنه قوله تعالى:
﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ لأنّ
السكنى من السكنون الذي هو: اللبث، والأصل تعذبه بفي
كقولك: قر في الدار وغني فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل

الإسلام ويأباه قوله: ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن
لك﴾⁽¹⁾ لانه لو شرط الإسلام لكان استغفاراً صحيحاً لا مقال
فيه، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى
فيه بإبراهيم؟ ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أي: يثبت وهو
مستعار من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قوله: قامت
الحرب على ساقها، ونحوه قولهم: ترجلت الشمس إذا
أشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رجل، ويجوز أن
يسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً، أو يكون مثل:
﴿واسئل القرية﴾⁽²⁾ وعن مجاهد: قد استجاب الله له فيما
سأل فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته، وجعل البلد
أمناً، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماماً، وجعل في ذريته
من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه، وعن ابن عباس
رضي الله عنهما أنه قال: كانت الطائف من أرض فلسطين
فلما قال إبراهيم: ﴿ربنا إني أسكنت﴾⁽³⁾ الآية رفعها الله
فوضعها حيث وضعها رزقاً للحرم.

وَلَا تَسْجُدْ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَاللَّذَاتِ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمِ
تَشْخُصَ يَدُ الْأَنْصَرِ ﴿١٦﴾.

فاز قُلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه
رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس به غافلاً حتى قيل ﴿ولا
تحسبن الله غافلاً؟﴾ قُلت: إن كان خطاباً لرسول الله ﷺ
ففيه وجهان: أحدهما: التثبيت على ما كان عليه من أنه
لا يحسب الله غافلاً كقوله: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾⁽⁴⁾
﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر﴾⁽⁵⁾ كما جاء في الأمر ﴿يا أيها
الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾⁽⁶⁾ والثاني: أن المراد
بالنهي عن حسبانه غافلاً الإيذان بأنه عالم بما يفعل
الظالمون لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله
وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله: ﴿والله بما
تعملون علم﴾⁽⁷⁾ يريد الوعيد، ويجوز أن يراد: ولا تحسبنه
يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب
عليهم المحاسب على النقيض والقطمير، وإن كان خطاباً
لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً لجهله بصفاته فلا
سؤال فيه، وعن ابن عيينة: تسلية للمظلوم وتهديد للظالم،
فقيل له: من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه.
وقرى: يؤخرهم بالنون والياء ﴿تشخص فيه الأبصار﴾
أي: أبصارهم لا تفرقي أماكنها من هول ما ترى.

مُهَلِّطِينَ مُتَّبِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَنْذَرْتُمْ هَوَاءً
﴿١٧﴾.

﴿مهطعين﴾ مسرعين إلى الداعي، وقيل: الإهطاع أن

(6) سورة النساء، الآية: 136.

(7) سورة البقرة، الآية: 283.

(8) سورة المنافقون، الآية: 10.

(9) سورة النحل، الآية: 38.

(1) سورة الممتحنة، الآية: 4.

(2) سورة يوسف، الآية: 82.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 37.

(4) سورة الأنعام، الآية: 14.

(5) سورة القصص، الآية: 88.

لا يخلف الوعد أصلاً كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (5) ثم قال: أرسله ليؤنن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً وليس من شأنه إخلاف المواعيد كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته، وقرئ: مخلف وعده رسله بجرّ الرسل ونصب الوعد وهذه في الضعف كمن قرأ: قتل أولادهم شركائهم ﴿عزيز﴾ غالب لا يماكر ﴿ذو انتقام﴾ لأولياته من أعدائه.

يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ عَرَّةً أَرْضًا وَالسَّمَوَاتُ سَمَوَاتٍ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٤)

﴿يوم تبدل الأرض﴾ انتصابه على البديل من ﴿يوم يأتيهم﴾ (6)، أو على الظرف للانتقام، والمعنى يوم تبدل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة وكذلك السموات، والتبديل التغيير، وقد يكون في النوات كقولك: بدلت الدراهم ننانير، ومنه: ﴿بدلناهم جلوداً غيرها﴾ (7) ﴿وبدلناهم بجنّتهم جنّتين﴾ (8) وفي الأوصاف كقولك: بدلت الحلقة خاتماً إذا أنبتها وسويتها خاتماً فنقلتها من شكل إلى شكل ومنه قوله تعالى: ﴿فأولئك يبذل الله سيئاتهم حسنتاً﴾ (9) واختلف في تبديل الأرض والسموات، فقيل: تبدل أوصافها، فتفسير عن الأرض جبالها، وتفجر بحارها، وتسوي فلا يرى فيها عوج ولا أمت، وعن ابن عباس: هي تلك الأرض وإنما تغير وأنشد:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت تعلم وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً، وقيل: يخلق بلها أرض وسموات أخر، وعن ابن مسعود، وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة، وعن علي رضي الله عنه: تبدل أرضاً من فضة وسموات من ذهب، وعن الضحاك: أرضاً من فضة بيضاء كالصانف، وقرئ: يوم تبدل الأرض بالنون.

فإن قلت: كيف قال ﴿الواحد القهار﴾؟ قلت: هو كقوله: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ (10) لأنّ الملك إذا كان لواحد غالب لا يغالب ولا يعاز فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار كان الأمر في غاية الصعوبة والشدة.

وَكَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّغْرَبِينَ فِي الْأَصْفَادِ (١٥)

﴿مقرنين﴾ قرن بعضهم مع بعض أو مع الشياطين، أو

إلى سكنون خاص تصرف فيه فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوأها وأوطنها، ويجوز أن يكون سكنوا من السكنون أي: قرؤا فيها وأطمانوا طيبي النفوس سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحتثونها بما لقي الأولون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم فعبثوا ويرتدعوا ﴿وتبين لكم﴾ بالإخبار والمشاهدة ﴿كيف﴾ أهلكناهم وانتقمنا منهم، وقرئ: ونبين لكم بالنون ﴿ووضربنا لكم الأمثال﴾ أي: صفات ما فعلوا وما فعل بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم.

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (١٦)

﴿وقد مكرؤا مكرهم﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم ﴿وعند الله مكرهم﴾ لا يخلو إما أن يكون مضافاً إلى الفاعل كالأول على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة فضررب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدة، أي: وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال معداً لذلك، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها كقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ (1) والمعنى: ومجال أن تزول الجبال بمكرهم، على أنّ الجبال مثل آيات الله وشرائعه؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثابتاً وتمكناً وتنصره قراءة ابن مسعود: وما كان مكرهم، وقرئ: لتزول بلام الابتداء على وإن كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها، وقرأ علي وعمر رضي الله عنهما: وإن كاد مكرهم.

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخَلَّفَ وَرَيْدِهِ رُسُلَهُ؛ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (١٧)

﴿مخلف وعده رسله﴾ يعني: قوله: ﴿إننا لننصر رسلاً﴾ (2) ﴿كتب الله لاغلبين أنا ورسلي﴾ (3).

فإن قلت (4): هلا قيل مخلف رسله وعده، ولم قدم المفعول الثاني على الأول؟ قلت: قدم الوعد ليعلم أنه

== السنة الرسل، فالهمم في التهديد نكر الوعيد، وأما كونه على السنة الرسل، فنلك أمر لا يقف التخويف عليه، ولا يدّ حتى لو فرض التوعد من الله تعالى على غير لسان رسول، لكن الخوف منه حسبياً كافياً، والله أعلم.

(5) سورة آل عمران، الآية: 9، سورة الرعد، الآية: 31.

(6) سورة إبراهيم، الآية: 44.

(7) سورة النساء، الآية: 56.

(8) سورة سبأ، الآية: 16.

(9) سورة الفرقان، الآية: 70.

(10) سورة غافر، الآية: 16.

(1) سورة البقرة، الآية: 143.

(2) سورة غافر، الآية: 51.

(3) سورة المجادلة، الآية: 21.

(4) قال احمد: وفيما قاله نظر؛ لأنّ الفعل تقييد بمفعول، انقطع طلاقة، فليس تقديم الوعد في الآية ليلياً على إطلاق الفعل، باعتبار الموعود، حتى يكون نكر الرسل بائناً كالأجنبي، من الإطلاق الأول، ولا فرق في المعنى الذي نكره، بين تقديم نكر الرسل وتأخيرها، ولا يفيد تقديم المفعول الثاني، إلا الإيذان بالعناية في مقصود المتكلم، والأمر بهذه المثابة في الآية؛ لأنها وردت في سياق الإنذار والتهديد للظالمين، بما توعدهم الله تعالى به على =

بهذا ما وصفه من قوله: ولا تحسبن إلى قوله: سريع الحساب ﴿ولينذروا﴾ مطوف على محذوف أي: لينصروا و لينذروا ﴿به﴾ بهذا البلاغ، وقرئ: و لينذروا بفتح الياء من نذر به إذا علمه واستعمله ﴿وليعلموا إنما هو إله واحد﴾ لأنهم إذا خافوا ما اتذروا به دعوتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد؛ لأن خشية أم الخير كله.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد»⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجر مكية

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾

﴿تلك﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والكتاب والقرآن المبين السورة، وتذكير القرآن للتفخيم، والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وآي قرآن مبين، كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان.

زَيْبًا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ كَانُوا مُتِلَبِينَ ﴿٢﴾

قرئ: ربما وربتما بالتشديد وربما بالضم والفتح مع التخفيف.

فَإِنْ قُلْتَ: لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضي؟ قُلْتُ: لأن المترقب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكانه قيل: ربما ود.

فَإِنْ قُلْتَ: متى تكون ودايتهم؟ قُلْتُ: عند الموت، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، وقيل: إذا راوا المسلمين يخرجون من النار، وهذا أيضاً باب من الودادة.

فَإِنْ قُلْتَ⁽⁵⁾: فما معنى التقليل؟ قُلْتُ: هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تندمه ولا يقصدون

قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين وقوله: ﴿في الأصفاد﴾ إما أن: يتعلق بمقرنين أي: يقربون في الأصفاد، وإما أن لا يتعلق به، فيكون المعنى مقرنين مصفدين، والأصفاد: القيود، وقيل: الأغلال، وأنشد لسلامة بن جندل:

سَرَابُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَمَّتْ وَجُوهُهُمْ أُنَارٌ ﴿٥٠﴾

القطران فيه ثلاث لغات: قطران، وقطران، وفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء وهو: ما يتحلب من شجر يسمى: الأبهل فيطبخ فتهناً به الإبل الجري، فيحرق الجرب بحره وحدته والجلد وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرح به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي: القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، وبتن الريح، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو أوعده به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عنينا منه إلا الاسامي والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجبنا من عذابه، وقرئ: من قطران والقطر: النحاس أو الصفر المذاب والآتي المتناهي حرجه ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ كقوله تعالى: ﴿فمن يتقى بوجهه سوء العذاب﴾⁽¹⁾ ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾⁽²⁾ لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه كالقلب في باطنه ولذلك قال: ﴿تطلع على الأفتدة﴾⁽³⁾ وقرئ: وتغشى وجوههم بمعنى: تغشى. أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل.

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾

﴿ليجزى الله كل نفس﴾ مجرمة ﴿ما كسبت﴾ أو كل نفس من مجرمة ومطبعة، لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

هَذَا بَلَدٌ لِنَاسٍ لِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَجِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

﴿هذا بلاغ للناس﴾ كفاية في التذكير والموعظة يعني:

= نكره الزمخشري أنفاً، من التنبية بالادنى على الأعلى، ومنهم من وجهه بأن المقصود في ذلك: الإيدان بأن المعنى قد بلغ الغاية، حتى كاد أن يرجع إلى الضد، وذلك شأن كل ما انتهى لنهايته، أن يعود إلى عكسه، وقد أنصح أبو الطيب ذلك بقوله:

ولجبت حتى كدت تبخل حائلاً للمنتهى ومن السرور بكاء وكلا هذين الوجهين، يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها، والعمدة في ذلك على سياق الكلام: لأنه إذا اقتضى مثلاً تكثرأ، دخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل، استيقظ السامع بأن المراد: المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين، والله أعلم.

(1) سورة الزمر، الآية: 24.

(2) سورة القمر، الآية: 48.

(3) سورة الهمزة، الآية: 7.

(4) نكره ابن مردويه والواحدى نكره (الزليعي 205/2).

(5) قال أحمد: لا شك أن العرب تعبر عن المعنى، بما يؤدي عكس مقصوده كثيراً، ومنه قوله:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

وإنما يمتدح بالإكثار من ذلك، وقد عبر بقدر المفيدة للتقليل، ومنه والله أعلم، وقد تعلمون أنني رسول الله، والمقصود: توبيخهم على إذاهم لموسى عليه السلام، على توفر علمهم برسالته، ومناصحته لهم، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك، فمنهم من وجهه بما=